

شبابنا فى حاجة إلى هذه الخدمات*

كنت أحبه لأنه كان بقلا ماهرا وما من مرة مررت به واتسع وقتى للوقوف معه دقائق إلا أطرفنى بالحديث الجميل وكان يحسن اختيار الحديث ويحسن إلقاءه وكانت حياتى أنا كلها خارج الحى الذى أسكنه فكان الرجل يضعنى فى مكانى بحديثه هذا الطريف لأنه كان مثله فى ذلك مثل كل المتكلمين مولعا بالأخبار والحوادث. وفى ذات مرة قال لى أتعرف كم شابا فى أسرتى؟ قلت ماذا تقصد أنت وامراتك واخوتك وأخواتك وأولادهم فقال لا بل كل العائلة أقصد كل أقاربى من يسكنون منهم فى حيننا هذا ومن يسكنون منهم بعيدا عنا ومن يسكنون حتى فى مدن أخرى أيضا.

فقلت له: وكانت لك طاقة على إحصائهم قال لا أدرى ولكن منذ عام خطرت الفكرة ببالي فجعلت أدون فى صفحات كراس قديم عندى أخبار كل من بلغتنى عنه أخبار من أولاد عائلتنا ، قلت إذن فأسرع وقل لى كم أحصيت؟ قال مائتان وستة شبان كلهم فوق الثانية عشرة من العمر؟.. ألا ترى أننا كثيرون جدا فسيح خيالى وظللت صامتا فقال ألا يدعشك هذا؟ ألا ترد؟ قلت يدعشنى طبعاً وبعد قليل أرد عليك ولكن فكرة عجيبة خطرت ببالي وأنا أفكر فيك وفى أنك من الشباب.

فقال: وفيم فكرت؟ قلت وكم من هؤلاء على وجه التقريب يشترون منك؟ قال لا أدرى لأننى فى الواقع غير محتاج إليهم وحتى إذا هم لم يشتروا منى فإن ذلك لن يغضبى.. الآن حال دكانى طيب والحمد لله ، قلت أنا لم أفكر فى أن يشتروا منك أولاً يشتروا فأنت حالك طيب ،

* نشرت هذه المقالة فى ٥ يناير ١٩٩٢ م.

ولا شك أن الكثير من فروع أسرتك طيبة جدا ولكن منهم الفقراء المحتاجون ، وأنا أعرف أن تفكيرنا هذا ليس من الضروري أن يأتي بنتيجة لأن العائلات الكبيرة كمائلتك تجدها متفرقة متباعدة الفروع ، وقد تكون بين أطراف العائلة خلافات ولكن ألا تتصور أنه من الممكن أن تتعاون أسرتك في شيء ما؟ أنت ترى أننا نعيش في زمن عسير جدا ولا يوجد إنسان منا إلا يحتاج إلى الآخرين ونحن فعلا يقصد بعضنا بعضا فماذا يحدث مثلا لو حاولت كل أسرة منا أن تنشئ بداخلها مركزا للتعاون؟.

وتركت الرجل ومضيت وأنا مشغلة البال بهذه الفكرة التي جاءتني وأنا واقف عنده ، ووجدت نفسي أقول في نفسي إن الناس في أيامنا هذه يحتاج بعضهم لبعض أكثر مما كانوا يحتاجون في الماضي لاختلاف التخصصات والمشاكل ، وليس من الضروري أن تكون حاجة الناس مقصورة على الحاجة إلى المال ، وأنا أعرف أن أول ناس ينفرون من هذه الأفكار هم أصحاب المال لأنهم يظنون أن كل الناس طامعة في أموالهم ، ولكننا نحن لا نحتاج إلى المال وإذا نحن احتجناه لا نطلبه من أقاربنا ، ولكننا نحتاج إلى مئات الأشياء الأخرى غير المال ، فنحن نحتاج إلى المعلومات نريد أن نعرف من صاحب السلطة هنا ومن صاحبها هناك نريد أن نعرف إذا كان بعض فروع الأسرة تملك كتباً مدرسية قديمة ولم تعد بهم حاجة إليها ولا مانع لديهم من إعارتها أو حتى إعطائها لقريب وبعض سيدات البيوت يملكن أشياء منزلية لم تعد إليها حاجة عندهن فلا يضرهن في هذه الحالة أن تعطيهن لمن تحتاج إليها من سيدات الأسرة بدلا من نقلها من مكان للمهملات في البيت إلى مكان آخر حتى تجسيء الفرصة للتخلص منها ولو في سلة المهملات ، أقول إن الأسرة شيء واسع جدا ، وإذا كان في أسرة هذا الرجل ٢٠٦ من الشبان فلا شك أن أسرته تقترب من الألف عددا وليس من الضروري أن تكون الحاجة إلى المال وحده إذا ارتبط أي فرع من الأسرة بفرع آخر ، ولكن هناك أشياء لا تقل

عن المال أهمية ويكفى أن نذكر حاجتنا إلى الآخرين عندما نريد أن ندخل أولادنا مدرسة سنجد أن كل ما تحتاج إليها هو معلومة وأحيانا كلمة وإذا كان أحد أقاربنا يعرف ناظر المدرسة الفلانية فإن كل ما سنحتاج إليها هو كلمة ليتسنى دخول أولادنا؟ وهذا مع العلم بأننا لن نحتاج من قريبنا أو صديقه إلا كلمة تتمشى مع القانون ولن نطالب أحدا منهم أبدا بأن يخالف القانون أو يرتكب أمرا ينكره الضمير ، فإن المدارس وجدت ليدخلها الأولاد ، وعندما يجيء وقت دخول المدارس تجد التزام يتوالى من كل ناحية والناظر أو المسئولون في المدرسة لا يريدون إلا اتباع القانون ونحن لا نطالبهم إلا بذلك وهم يعرفوننا ويعرفون أننا لا نقول إلا الحق وليس لديهم مانع في هذه الحالة فسي أن نتقدم إليهم طالبين المعاونة وهم لا يتأخرون في المعاونة ونحن نعلم أن كل الناس من حولنا يبحثون عن المعاونة لأن العلاقات بين الناس تعقدت والدنيا قد اتسعت وامتدت علاقاتنا بالناس حتى لم نعد اليوم نستغنى عن المعاونة وكل يوم يأتينا طفل جديد أو نسعى بطفل آخر إلى مدرسة وبدلا من أن نطلب المعاونة ممن لا يعرفنا فلماذا لا نطلب المعاونة ممن يعرفنا ويطمئن إلينا؟

وأقول هذا لأن الدنيا تغيرت جدا في عصرنا هذا ، وأنا لا أقول إن الزمان اليوم أصبح أسوأ من الزمان فيما مضى ، ولكن الناس كثروا جدا وتعددت الحاجة والمطالب والناس من حولنا كثيرون جدا ونحن لا نستغنى عنهم ولا هم يستغنون عنا ، ومهما أردنا أن نتسبرأ من القرايات في العلاقات فنحن مهما فعلنا لا بد أن نستعين بالغير ، والفكرة التي خطرت ببال البقال لم تكن سيئة لأنه في الواقع لم يكن يحتاج إلى شيء من أحد أقاربه ولكنها كانت فكرة طريفة في زماننا هذا.

وقد كنا في الماضي نحتاج إلى أشياء محددة لأن الدنيا أيضا محددة ، فقد كان السباك أو النجار أو الكهربائي في الماضي رجلا واحدا ، وكنا نقصده في أي شيء داخل في اختصاصه ، أما اليوم وقد أصبح السباكون

عشرة تخصصات وتنوعت أشكال النجارة حتى أصبحنا نحتاج إلى عشرة نجارين أو عشرة كهربائيين فإننا فعلا نحتاج في زماننا هذا إلى أضعاف من كنا نحتاج إليهم في الماضي ، ويكفى أن نذكر أننا دخلنا من سنوات قصيرة في عصر الكمبيوتر ، ونحن نظن أن هذا الكمبيوتر شيء بسيط مع أنه في غاية التعقيد ، بل إن ماكينة الكتابة دخلت حياتنا فتعلمها منا من يستطيع وعاش بها ، ولكن أحدا منا لا يستطيع أن يستغنى اليوم عن الكمبيوتر لأنه داخل حياتنا من نواح شتى ولا بد أن نتعلمه لنستعمله ، وهو يدخل اليوم في كل شيء سواء في الإحصائيات أو التحليلات ، فإنك إذا أدخلت أولادك في المدرسة فقد اكتبوا في كومبيوتر المدرسة ، وأنت لا تستطيع أن تبحث عنهم في قوائم المدرسة ، وأى طبيب يرسل أوراق مريض للتحليل في معامل الكمبيوتر ، وهو لا يستغنى عن أوراق التحليل أبدا ، وإذن فنحن محتاجون إلى الكمبيوتر في كل أركان حياتنا، وإذا كان لديك إحصاء لأسرتك فأنت ستحتاج إلى هذا الإحصاء في كل حين ، ومهما كانت عائلتك فلا بد في عصرنا هذا من أن يعرف الكمبيوتر بعض أهل أسرتك ، وأنت تستطيع أن تستفيد من هذا القريب ليخدمك والدنيا في اتساع دائما ومصالحك تتوسع ، وإذن فإن ما أشار إليه يقال ينفعك ، وإذا كنا نستطيع أن نجعل الدنيا أسهل مما هي عليه فلماذا لا نجعلها أسهل ، وأنا شخصا عندما فرغت من الجامعة ومضيت أبحث عن وظيفة لم أجد الدنيا باتساع اليوم واستطعت أن أجد الوظيفة التي أبدأ منها ، لأن الدنيا لم تكن بهذا الزحام البشع أو الصعوبة القاسية التي نراها من حولنا ونحن إذن في حاجة شديدة جدا للمعاونة وعصرنا هو الذي يملئ عليك هذه الحاجة ولا بد أن نجد حلا لهذه المشكلة. وإلى جانب ذلك فإن حاجات الناس من الدنيا كانت بالأمس أقل بكثير مما هم يحتاجون إليه اليوم وإذا كنا نحتاج اليوم إلى حذاء فانظر كم تدفع اليوم في الحذاء أو البذلة أو الجلاب إن نسبة الغلاء لا تصدق وأنا من أسبوعين احتجت إلى شيء من إصلاح الكهرباء في بيتي ، فاستقدمت

الرجل - وكنت أعرفه قبلا - وعرضت عليه ما أريد ، فكشف على الكهرباء فى بيتى وقال: مع الأسف الشديد ، لا بد أن أقرر أن قدر الإصلاح الذى تحتاج إليها فى بيتك أضعاف ما ظننت ، فإن كل أسلاك الكهرباءية تحتاج إلى تبديل ولا بد من تغييرها ، فقلت له: هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام ، وأنا فى الواقع مندهش مما تقول ، فقال: إن الإصلاح الكهربائى فى شقتك يتكلف ٧٠٠ جنيه! فلم أقل شيئا وظلمت أنظر إليه فى ذهول فقال: إن كل أسلاك الكهرباءية فاسدة وأنا لا بد أن استخرج كل أسلاك بيتك واستبدالها بغيرها ، فقلت له بعد تفكير: يبدو يا صديقى أنك حسبتنى أغنى مما أنا عليه الآن ، فأنا رجل أكسب ما يغطى حاجاتى عن وسع ولكن لست غنيا ، ومهما أنا بحثت فإننى لن أجد عندى ما تطلب! فقال لى: إذن أدعك لى تفكر! فقلت: فيم أفكر؟ قلت لك إن كل ما عندى يغطى نفقاتى الضرورية ولكنه - مهما أفكر - لن يصل بى إلى ما تريد ، فلا ظل كما أنا الآن وأمرى إلى الله ، فنظر إلى طويلا ، ثم ابتسم ومضى ، وأنا جلست على كرسى ومضيت أفكر فى سوء حالى وأدبر نفسى فى أمر نفسى ، فأنا لم يحدث قبل ذلك أن خطر ببالي أنسى سأطالب يوما بهذا المال الجسيم.

وذهبت إلى كهربائى آخر وعرضت عليه الأمر ، والرجل نظر إلى طويلا وقال: إن كثيرين من آل بيتك فعلوا هذا الذى أشار إليه الكهربائى الآخر، لأن الرجل الذى بنى بيتكم أخطأ فى هذه النقطة بالذات! فقلت له: إذن فأنت ترى أنه على حق؟ فقال: ربما! قلت ، وهل أنا إذا طلبتك ارتفع سعر الإصلاح إلى هذا المبلغ؟ قال: ربما! قلت لقد قلت إن نفرا من الذين اشتروا فى هذا البيت مثلى يشكون من نفس المشكلة؟ قال: لا أدرى. قلت له مع الأسف الشديد فأنا لا أستطيع أن أجرى هذا الإصلاح فى بيتى الآن، فهل تستطيع أن تعطينى أسماء بعض جيرانى الذين أجروا هذه العملية لى استشيرهم ، فقال: أعطيك اسم فلان وفلان.

وأول جار من هذين لم يعجبني بل أغضبني لأنه ظن أنني أفكر فى أذى الكهربائى ، فأراد أن يطمئن قبل أن يجيب ، ثم تلثم بعض الشيء فى رده فقلت له : يا صدىقى هذا رجل أعرفه منذ زمن ، ولقد تعاملت معه قبل ذلك فى عمليات كثيرة معظمها صغير ، وقد قلت لك إنه لو كان عندى هذا المبلغ فربما كنت أجريت الإصلاح الذى يشير به وفرغت من ذلك ، ولكنك تعرفنى فأنا رجل أعمل وأكسب ، ولكن كسبى لا يكفى هذه المرة لتغطية نفقات عملية كهذه ، وكنت أظن بعد أن صارحتك بهذا كله - أن تبادر إلى معاونتى ، فإنا ٧٠٠ جنيه مبلغ ضخم ، وحتى لو أردت دفعه فإننى لا أستطيع فنظر إلى طويلا وقال: أقول لك الحق إننى أعطيته قرابة هذا المبلغ ولكن ليس فى هذه العملية وحدها ، فقد كان إلى جانبها عملية أكبر منها ، ولكن قل لى: فىم طلب منك هذا المبلغ؟ فقلت: يقول إن كل سلوك الكهرباء فى الشقة لا بد من تغييرها ، لأنها تالفة ، ففكر لحظات ثم قال: لا أظن أن هذا ممكن ، فهذا البيت ما زال حديث البناء ثم إن والدى - وكان هو المقاول الذى بنى البيوت واشترينا منه - كان شديد التدقيق فى مسائل الكهرباء ، وأنا هنا لم أغير كل السلوك ، ولو أنى أردت تغييرها فلا بد لى من كهربائى أكبر من هذا ، ولا أظن يا فلان أنك تحتاج إلى ذلك، دعك منه الآن ودعه لى.

وأحسست أنني لا أحتاج إلى تلك العملية فى ذلك الحين فصرفت نظرى عنها وإن لم أفهم صدىقى ودون أن أعرف السبب الذى جعل الكهربائى يطالبنى بهذا المبلغ الكبير ، ولكننى وجدت نفسى أقول فى نفسى بعد حين: هذا أمر غير ممكن أو معقول إن هؤلاء الناس يحسبون أن المال لا قيمة له عندنا أو أننا نحصل عليه دون تعب ، لو كان لنا مجلس أسرة من الطراز الذى أشرت إليه فلا بد أن عائلتنا كانت تضم أكثر من كهربائى ما بين رجل عامل فى الكهرباء فعلا ومقاول يفهم فى هذه

الأمر، وفي هذه الحالة لم يكن يعسر على أبدا أن أعرف ما ينبغي عمله في ذلك الظرف. وأنا الآخر سأكون على قائمة العائلة مستعدا للخدمة فيما يحتاجون للخدمة فيه إذا أرادوا لأنه حتى في الأوقات التي لا يقصدني فيها أقاربي فإن الناس لا يعفونني أبدا ولا يمضي أسبوع دون أن يقصدني رجل - قد يكون معرفة بسيطة جدا - ويطلب إلى أن أكلم له فلانا أو علانا ، وأنا تثقل على هذه الخدمات ، ولكن أحيانا لا يكون أمامك مفر من التعب إلا إلى المزيد من التعب.

وقد حدثت بعض أصحابي في فكرة اتحادات الأسرات ، تناقشنا فيها وعرفوا أن مجلس العائلة ليس مجرد مدفع تطلق منه القذائف على الآخرين وإن الواحد منا لن يتحول إلى متسول لا يكاد يلقى إنسانا إلا تقدم إليه برجاء ، بل إن مجلس الأسرة لن يكون مجلسا على الإطلاق.

وإنما هو في الحقيقة سيكون مركز استعلامات لخدمة الشباب من المدارس إلى الوظائف إلى الزواج لأن الشباب في صباهم وفي أوائل سنوات التخرج لا يكاد يعرف أحدا ، ثم إن المعلومات في ذاتها تنفعه ، ثم إن بعض الشباب يكونون عاجزين فعلا عن الاتصال بالآخرين ويطول بهم الأمر في البحث عن الوظائف دون نتيجة ولا يد من معاونتهم ، وفي ذات مرة زارني صديق من الجزائر ليحدثني في أمر مؤتمر سيعقدونه هناك وتغدينا معا ، ثم قال لي في نهاية الغداء ، لا بد أن أذهب غدا إلى وزارة التعليم فإننا في حاجة إلى عدد من المتخصصين في علوم الزراعة ، فقلت له إذا كنتم تحتاجون هؤلاء المدرسين بكلية أو معهد عال فالأفضل لك أن تقصد إحدى الجامعات فقال لي: أظن ، لأن الذي يريدونه هو إنشاء معاهد زراعة متوسطة اقترحها علينا الفرنسيون ، وقدموا لنا الاختصاصيين وبقي علينا عدد من مدرسي الزراعة في تخصصات مثل الرياضيات والكيمياء والطبيعة واللغة الفرنسية ، قلت وكم عدد المطلوبين تقريبا؟ فقال: ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ، قلت وهل طلبوا منك أن تسلم هذا

الطلب إلى أحد بعينه قال: لا والله ، ولكنهم متعجلون ويريدون افتتاح هذه المدارس في أقرب فرصة.

وانقطع الحديث في هذا الموضوع وأنا الآن أفكر في أنه لو كان لأسرتنا اتحاد أو مجلس لشغلت هذه الوظائف المطلوبة في الحال ، لأنسى كنت سأتصل بمندوبي الأسرة وأبلغهم الخبر وأنقل إليهم الطلب وشباب الأسرة. سيفترس الوظائف المطلوبة افتراسا ، وقد أطال بى خاطرى الفكر فى موضوع الأسرة وشبابها فوجدت أن مثل هذا الاتحاد لا بد أن يكون موجودا ب صور شتى فى كل بلاد الدنيا لأنه لا بد من معاونة الشباب فى الحصول على الوظائف ، بل لا بد من تخصيصهم فى التخصصات المطلوبة إذا لم يكونوا متخصصين ، المهم أن يكون لديهم الأساس العلمى الذى تحتاج إليه الوظائف ، وأنا وأفراد دفعتى عندما تخرجنا وتطلعنا من حولنا وجدنا أن الدنيا تحتاج ولكننا لا بد أن ندرس المزيد من اللغات والجغرافية والجيولوجيا وتفاصيل اللغات كالتحو والصرف واللغة اللاتينية ، وقد أعطونا الوظائف بشرط إتقان هذه الدراسات فاقبلنا عليها ، وفى عامين كنا قد أتقنا معظم المطلوب ، وسرنا فى طريقنا ونحن مستعدون لأى شىء ، وأذكر أن أستاذا نمساويا حضر إلى القاهرة لتحقيق الوثائق والمخطوطات العربية ، والحقونى به لكى أعاونه وأتعلم ولكن الرجل كان أنانيا نفورا ، وقد نفر منى نفورا شديدا ، وكان يسكن فى شارع حسن الأكبر الذى كان يصب فى باب الخلق ، وكانت شقته عالية جدا ولكنها واسعة وتطل على قصر عابدين ، وكانت كتبه كثيرة جدا ، ولكنه يطلب منى أن آتية حوالى الرابعة بعد الظهر ، ولكنه هو لم يكن يأتى إلا فى السادسة ، وقد تعبت جدا من سلوكه هذا وأشرت إليه مرة إلى أن الجامعة أحالتنى عليه لأتلم منه ، فقال لى فى غاية العنف لم يقولوا لى عندما تعاقدوا معى أنسى سأعلم ، فقلت له إذن فهم تعاقدوا معك على أن يدفعوا لك شىء ولا تعطى مصر شيئا؟ لا تنس يا سيدى أننى من هذا البلد ، وأن الذى يههم أهل بلدنا أن أتلم أنا ومن هم مثلى ، فنظر إلى طويلا ثم قال: ليس عندى

ما أقوله لك ، فقلت له أما أن أرتد إلى الجامعة دون نتيجة فمستحيل ، لا تطالبني بأن آتيك بخطاب خاص بي من الجامعة ، فقد فهمت أنهم لن يكتبوا خطابا ، فأنا هو الخطاب وأنت رجل تعمل.. فما يضرك أن تطلعن على ما تعمل.. إننى هنا لكي أتعلم منك ، أليس هذا واضحا.

وتركنى الرجل فى الصالة أمام كتاب ودخل هو حجرته وأغلق بابها عليه. ولم يضايقنى ذلك منه ، فالواقع أننى كنت متضايقا منه كله - من أوله إلى آخره ، واستمرت آتى كل يوم. وبعد يومين وأنا فى الانتظار من الرابعة إلى السادسة أتت شابة ألمانية تبينت من إصبعها أنها متزوجة ، وقالت إنها متخصصة فى الحبشية واللغات السامية ، وإنها ستعمل مع الأستاذ وهو الذى طلبها من ألمانيا ، وكانت السيدة لطيفة جدا ، وقالت فى أثناء الكلام إنها لا بد أن تتعلم العربية وهى فى حاجة إلى مدرس فى اللغة العربية فعرفتها بنفسى ثم سألتها إن كانت توافق على أن أكون مدرسا لها فرحبت ، واتفقنا فى النهاية على أن نتبادل الدروس والمعونات ، هى تدرس لى الحبشية والعبرية وما أحتاج إليه من اللغات السامية ، وأنا أدرس لها العربية وأترجم لها كل ما تحتاج إليه من النصوص ، وسرنا فى هذا الطريق دون أن نقول للأستاذ ، وبعد ثلاثة شهور كنت قد دخلت فى اللغات السامية ، ربما بصورة أحسن مما كان من الممكن أن يعملها معى الأستاذ.

على أى حال شعرت فى هذه السنوات كلها أن الشباب فى حاجة إلى معاونة ، وهأنا ذا الآن أعود إلى نفس الفكرة بعد أن تعقدت شئوننا وزاد عددا ، وأحب أن أرجوك أن تعرف أن هذه الصعوبات موجودة فى الدنيا كلها اليوم ، والشباب يحتاج إلى المعاونة من كل ناحية ، وفكرة جمعية العائلة فكرة قومية فنحن من زمن طويل معتمدون على الشئون العائلية فما رأيك.